النمر الأصفر

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٢٠م

النمر الأصفر

(رواية)

بقلم :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٢٠م

الإهداء

إلى الشعب الفلسطيني البطل الذي مازال

يقاوم العالم بأسره من أجل تحرير وطنه

السليب من الإستعمار الإسرائيلي حتى

وقتنا الحاضر

(١)

أسدل الليل ستاره ببطء رتيب كعادته كل يوم على ثنايا غابات الخضيرة الناتئة من على جبل الكرمل بلونه الأسود المطرز بالنجوم عدا هذا اليوم حيث كان مختلفا تماما عما سبقه من ايام ، و لاسيما بالنسبة لفراس و رفاقه الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نزول الظلام ليتخفوا تحت ردائه بعيدا عن أعين مطارديهم و يريحوا أجسادهم المبللة بالعرق من شدة التعب

بعد كل عملية فدائية ينفذوها ضد قواتهم ، ففي ذلك الوقت ناموا مبكرين جدا حوالي الساعة الرابعة عصرا على غير عادتهم من فرط التعب الشديد الذي أقعدهم عن العمل حيث لم يذوقوا طعم النوم طيلة ثلاثة ايام و هم يجابهون عدوا شرسا صعبا يوظف كل امكانياته المجلوبة من الغرب للتفتيش عنهم وسط البحر و السهل و الجبل و السماء و أحشاء الزهور الذابلة و الأشجار المبتورة مذ وطأت أقدامهم المطاطية على بساطها الأخضر

دون رحمة ، فبالكاد بعد كل هجوم فدائي ضد الجنود الإسرائيليين كانوا يستريحون نصف ساعة او أقل داخل مخبأهم ما بين أشجار السرو ثم يبللون رؤوسهم بماء الغدير القريب منهم و يبقوا متيقظين حتى فجر اليوم التالي لمراقبة المكان من كافة جوانبه متناوبين على ذلك فيما بينهم خشية إكتشاف الجنود المخبأ و الوصول اليهم ، لكن بعد أن قرر قائدهم فراس وقف وتيرة العمليات الى أجل غير مسمى حتى يرتبوا اوضاعهم و توفير حاجاتهم من المال و

السلاح عبر مصادر بديلة قادمة هذه المرة من الخط الأخضر و تحديدا منطقة جنين بعد اقتحام شركة رعمون للمعدات العسكرية في حيفا من قبل الشرطة ، فهذه اول يوم ينامون فيه نوما عميقا دون قلق و خوف و ترقب من أحد ، فلم يستطع أن يتوقف عن تقليب وجهه و جسده ذات اليمين و ذات الشمال من شدة الأرق الذي إعتاد عليه منذ قيامه بهجماته المسلحة ضد الإحتلال الإسرائيلي عكس زملائه الذين سرعان ما غطوا في نوم عميق

ليس هذه المرة بسبب نوبة حذر و خوف بل إنتابه كابوس مزعج ظل يؤرقه و يتصبب عرقا منه سرعان ما إنتفض و إستيقظ من النوم مفزوعا الى حد الهلع سرت في أنحاء جسده و لم يتوقف عن الشهيق المتسارع بحدة ، و ظلت عيناه جاحظتان و متسمرتان مكانهما و فمه يرتجف و يتمتم بكلمات و أدعية لدرء الخوف و الفزع مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم و من اي مفاجأة قد تحدث له و رفاقه.

(2)

ثم ما لبث أن إستعاد وعيه و إسترد هدوئه متجها ناحية الغدير ليغسل وجهه و يروي ظمأه من شدة الفزع متذكرا الكابوس الذي أقض مضجعه قبل قليل ، حيث كان يحلم بأنه إستيقظ من نومه و فتح عينيه ليرى امامه أحد جنود الإحتلال الإسرائيلي و قد وصل الى مخبأهم مصوبا فوهة بندقيته نحوه مطلقا رصاصة الغدر لتصيبه في مقتل

، ما زال يجول في خاطره و هو يتجه الى أعلى الكهف حيث يختبئون و هو مركز المراقبة الخاص بهم للإنذار بإتجاه مدينة حيفا المتلألئة بأنوارها و المزينة بأشجار السرو المحيطة بمداخلها خلال اللحظات الأولى من الفجر الذي دخل خلسة الى بيوتها و مبانيها في مدينة لم تعد تعرف النوم ليلا كما كانت اوائل القرن الماضي، دون أن يعرف مغزاه او سببه مما أدخل نفسه في تساؤلات او تخمينات عدة حولها ، هل الجنود إكتشفوا مكانهم ؟ و

إذا كان كذلك فمن الذي وشى بهم او كيف إكتشفوهم ؟ ام أنه نذير شؤم على العملية الفدائية القادمة التي سينفذونها غدا ؟..... الخ ، و هكذا ظلت تساوره الشكوك لبرهة من الزمن الى أن إنقشعت من مخيلته و تيقن في الأخير بأنها دلائل و مؤشرات توصله الى النقطة المحتومة التي كان يتهرب منها كثيرا و يؤجل التفكير بها من حين لأخر ، لكن لا مفر من مواجهة نفسه بها ، و هو أن هذه العملية ستكون أخر عملية فدائية سيقوم بها و يلقي فيها

مصرعه بعد عشرين عملية مماثلة و ناجحة الهب من خلالها و رفاقه ظهر العدو الإسرائيلي و جنوده و أربك تحركاتهم طيلة ١٢ عاما مضت ، فمن الكمين المفاجئ لكتيبة عسكرية تابعة للواء الجولاني في غور الأردن موديا بحياة ٣٠ جندي ذعروا بخروج المهاجمين من الحشائش الموجودة في البحيرة بوابل من رصاص رشاشاتهم المصوبة نحوهم ، و تفجير سبع طائرات حربية من نوع إف ١٦ داخل قاعدة عتليت متنكرين بزي عمال صيانة

إسرائيليين يقومون بإصلاحها و يضعوا قنابل موقوته داخل محركاتها النفاثة و تحريك طائرات بدون طيار محملة بقنابل عنقودية تسقط على الأليات العسكرية المتجهة نحو غزة عبر جهاز تحكم عن بعد ، الى تدمير اجزاء من الجدار العازل و غيرها من العمليات التي طغت شهرتها بأصحابها الآفاق و يصبح على إثرها قائدهم (فراس باسل) ذاك الشاب الأردني بعينيه الزرقاوين و شعره الأشقر و التي تعود أرومته الى شراكسة فلسطين

بطلا قوميا في نظر الشعوب العربية و الإسلامية قاطبة لدرجة وصفه بالسوبرمان لإنتصاراته المذهلة ضد العدو الإسرائيلي و جيشه الذي لا يقهر و لم يستطع اي جيش عربي دحره منذ ١٩٤٨م ، إلا أنه أشتهر لديهم بلقب ((النمر الأصفر)) حيث كانوا يشاهدونه على شاشات التلفاز لحظة الإعلان عن عملياته مرتديا بزة صاعقة صفراء تشبه جلد النمر البنغالي الى حد كبير دون معرفتهم بما يخبئه وجهه من مآسي و نكبات أجبرته على سلوك هذا

الطريق الخطر رغما عن أنفه ، بمعنى آخر مجبر أخاك لا بطل ، و إلا كيف تفسر أن يترك شابا مرهفا مدللا مثله نعيم و ثراء والده الوفير و الفراش الوثير الذي أقض مضجعه بهذه البساطة ؟ ! كيف لا و قد ولد و في فمه ملعقة ذهب بفضل والده المقاول الثري باسل نبهان صاحب أكبر شركة مقاولات في مدينة الزرقاء الذي يربح في الصفقة الواحدة ٢٠ الف دينار اي ما يعادل ٦٠ الف دولار بعدما كان فيما مضى مجرد موظفا و مهندسا بسيطا

محدود الدخل في لجنة المناقصات التابعة لمكتب وزارة الأشغال هناك براتب شهري ضئيل بالكاد يسد الرمق ما قيمته ٦٠٠ دينار(١٢٠٠دولار) ، بل إن حظه كان أفضل من حظي أخيه و أخته الكبيرين الذين عانا من شظف العيش وقتها ، و مع ذلك ، فقد نال نصيبا وافرا من قسوة و إضطهاد أبيه بسبب او بدونه أكثر منهما ، و أن لم يكن بداية هذا الظلم و التجني عليه وليد الصدفة ، بل إن مصدره سخيف و مضحك جدا لا يدعو حتى للتشاجر او

العراك ألا و هو رسوبه في الإبتدائية ثلاث مرات فقط و لاسيما في الصف الرابع و بسبب رسوبه في مادة اللغة العربية رغم حصوله على الدرجة النهائية في بقية المواد الأخرى ما أثار غضبه الشديد و المنصب إنصباب حمم البركان الهائلة عليه دون توقف ، فقد رأى رسوب ولده بهذا الشكل قد يجلب له العار على أسرته و يسئ لسمعته شخصيا مع العلم أن نجله الأكبر نادر رسب ١٤ مرة منذ السادس الإبتدائي حتى المرحلة الثانوية تخرج منها بصعوبة

بتقدير مقبول ، كذلك كريمته منال رسبت أربع مرات في الإبتدائية و بجميع المواد دون إستثناء ، و مع ذلك لم يحرك نحوهما ساكنا رغم سخرية الجيران و الناس منهما ، فلقد ظن أن الثروة الكبيرة التي هلت عليه من المقاولات و تدليله الزائد له قد افسداه و جعلاه يهمل دراسته و ينشغل عنها بأشياء أخرى كالسهر مع أصدقائه حتى منتصف الليل و اللعب في النادي كرة قدم او تنس او كرة الطائرة او دخول إحدى الملاهي الليلية هناك (و

كذلك نادر و منال) فلذا شدد قبضته و تعامل معه بقسوة و صرامة لا مثيل لها تنوعت ما بين توبيخ و سخرية و اهانات و صفع و ضرب بالعصا او الحزام بلا توقف و حرمانه الدائم للمصروف الشهري .....

و غيرها من الأساليب القمعية التي لا حصر لها و يندى لها الجبين مما أثارت شفقة و حزن والدته و شقيقته منال اللتان أفزعهما و راعهما ما يتلقاه فراس من قسوة و عنف أبيه دون مراعاة لصغر سنه ، و كلما حاولتا إنقاذه و حمايته من الضرب

المبرح الذي يتعرض له تدخل و نهرهما و ضربهما بشدة لتنصرفا خائفتين و حزينتين ، اما نادر فلم يحرك ساكنا و نأ بنفسه إزاء ما يحدث لأخيه الصغير ، فهو بنظره يستحق كل هذا العقاب المفروض عليه و حتى يلهي أباه عنه بسبب رسوبه المتكرر و تسكعه في الشوارع و النوادي الليلية و يجعله يصب جام غضبه عليه وحده ، فلو تدخل من أجل حمايته او الدفاع عنه قد يدفع أباه بان يضعه مع أخيه في خانة لينال غضبه ، و لاسيما بعد أن جعله ذراعه

الأيمن في الشركة و نصبه نائبا لرئيس مجلس إدارتها ، لذا آثر التخلي عنه من أجل ذلك مما أثار إستغراب امه التي إستهجنت موقفه هذا و تحريضه المستمر ضد شقيقه الأصغر دون وجه حق ، فكثيرا ما كانا يتشاجران يوميا بسبب ذلك ، فتدخل منال معمعتها لصالح امها و دفاعا عن فراس ، فهي لا تنسى مواقفه النبيلة تجاهها سواء في مساعدتها بمادة اللغة الإنجليزية و التي تسببت برسوبها مرتين في الصف الثالث الإبتدائي او الدفاع عنها

امام والده و تحمل عقابه عندما تأخرت في عودتها للبيت ليلا من إحدى النوادي الليلية برفقة زميلاتها في المدرسة و سرعان ما ينتهي بظهور السيد باسل لينقضه بتوبيخ عنيف لكلتيهما و مؤيدا لنادر فيما إدعاه حتى و لو لم يجانبه الصواب فيه ، و مع أن فراس قد تاب و ترك عالم السهر و النوادي الرياضية و الملاهي الليلية و مصاحبة رفاق السوء و إنكب على مواظبة دروسه بجد دون أن يرسب في اي مرحلة من المراحل الدراسية محققا نجاحاً مستمرا

بدرجات عالية بالغة التفوق تنتهي بتتويجه الأول على مستوى المملكة في نتائج الثانوية العامة بنسبة ٩٩% ، إلا أن هذا لم يشفع عند والده أبداً كي يوقف إضطهاده له .

(3)

إستمر السيد باسل في ممارساته القمعية تجاهه أشد من ذي قبل و لاسيما بعد دخوله الجامعة و إنتسابه لكلية اللغات قسم اللغة الإسبانية و التي أحبها مذ كان بالمرحلة الإعدادية عبر زميلته الكوبية من أصل يمني سلمى سلطان و كانت تسكن في حي النميرية مقابل سكنهم القديم هناك ايام الفقر مع والدها الأرمل جراح القلب العالمي في مستشفى المواساة و الذي غادر وطنه اليمن الى كوبا خلال أحداث ١٩٨٦م الدامية هناك حيث فجع بمصرع

زوجته خلالها ، و كانت تعيره روايات غابرييل غارسيا ماركيز[1] و جوان أنفانتي[2] و ماريو فارجاس يوسا[3] و هارولد كونتي[4] بلغتهم الأصلية قبيل عودتها و والدها الى كوبا مرة أخرى بعدما قضيا ثلاث سنوات هناك تاركةً اياه فريسة الحيرة و التساؤل الدائمين الذين لم ينقطعا عن تفكيره مطلقا حول سبب معاملة والده القاسية المستمرة له سيما بعد تعهده بعدم العودة الى حياة

[1] كاتب كولومبي شهير حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م ، من أشهر أعماله الأدبية روايات (مائة عام من العزلة) و (خريف البطريرك) و (الحب في زمن الكوليرا) (المؤلف) .

[2] كاتب كوبي مقيم في إسبانيا و من الرافضين لتيار الأدب الامريكي اللاتيني الموحد (المؤلف) .

[3] كاتب بيروفي شهير و سفير سابق في وزارة الخارجية ومرشح سابق لرئاسة الجمهورية عام ٢٠٠٥م حاز على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠١٠م ، من أشهر أعماله الأدبية (من قتل بلومونزون ؟) (المؤلف) .

[4] كاتب أرجنتيني مثير للجدل لقي مصرعه هو و زوجته بعد خطفهما قسرا عام ١٩٧٨م (المؤلف) .

الضياع و التسكع مجددا إلا أنه مازال غاضبا منه و يوبخه بألفاظ نابية لا تجوز أن تقال مما تسبب غصة شديدة في قلبه لم تستطع كلمات امه الجابرة لخواطره ان تمحو مرارتها ، ظن أن غضبه نابع من عدم التحاقه بكلية الهندسة كما يرغب و فضل عنها نظيرتها اللغات ، فقرر التحويل منها إرضاء له و لكن دون فائدة ليبقي الحال كما هو عليه بلا تغيير يذكر ، فتأزمت حالته النفسية الى حد لا يطاق او يمكن السكوت عليه بعدما عزوفه المستمر عن

الأكل و الشرب و مشاهدة التلفاز مع العائلة و التنزه و حتى الرغبة بالدراسة او رؤية اي من أصدقائه في الكلية و لولا إصرار امه و صديقه مروان نصوح الشاب الفلسطيني و زميل دراسته في الكلية و كلاهما في المستوى الثالث و الذي التحق بها إنتساباً و مع ذلك نجح في المستوى الثالث و بتقدير امتياز حاملا معه هموم وطنه فلسطين بكافة جوارحه و التي اتى منها بعد هزيمة ٦٧م مع والديه ضمن فلول النازحين الفارين من بطش القوات

الإسرائيلية التي إجتاحت الضفة الغربية بمن فيها مسقط رأسه نابلس و هو لم يتجاوز السابعة من عمره بعد حيث نقلها لزملائه بإخلاص و منهم فراس على أن يعود و يعدل عن قراره عدولا نهائيا و إن كان لم يغير من حالته المتدهورة بتاتاً حيث كان يشجعه و يقوي من عزيمته عندما كان يحدثه عن صمود الفلسطينيين في مواجهة الإحتلال الإسرائيلي و التة القمعية الرهيبة التي لا يحتملها إنسان قط .

(يا صديقي باسل ، على الرغم من مما يتعرض له شعبنا من أصناف العذاب و القهر و الظلم الذي يمارسه الإسرائيليون نحوه و التي لا تقدر الجبال مجتمعة على تحمله البتة فان الأخير سرعان ما ينهار تماما امام صلابة الأول و شجاعته المنقطعة النظير في مقاومته المتواضعة و ايمانه الشديد بقضيته العادلة و بالأمل القادم بالحياة الكريمة التي تحفظ له كرامته ،،،،،، أنظر الى هذه الصور التي تؤكد صحة كلامي ،،،،، هذه صور لجنود

الإحتلال و هم يفرون من رصاص الفدائيين المتواجدين في جنين ،،،،،، و أنظر هذه صورة لدبابة ميركافا دمروها أبناء شعبنا بإمكانياته البسيطة في غزة ،،،،،، و هذه صورة لطائرة حربية إسرائيلية من نوع الأباتشي أسقطناها في دير البلح).

و إستمر التوبيخ و الضرب الموجه ضده كالعادة بلا توقف رغم كل شيء ، فزاد تبرمه للحياة أكثر من ذي قبل و معها اسئلته المعتادة التي لم تتوقف عن الدوران

في فلك عقله المرهف و المثقل بالهموم باحثة بإلحاح عن إجابة حاسمة و شافية لما يعتريه من حيرة خانقة تقبض على عروقه قبضة السوار بالمعصم .

(لماذا أبي يضربني هكذا بإستمرار ؟ !

،،،،،، هل لأني مهمل في دراستي ؟ !!

،،،،،، و لكني توقفت عن حياة اللهو و العبث و درست بجد و حصلت على المركز الأول على مستوى المملكة في نتائج الثانوية العام الماضي و بتفوق بل أنا

الوحيد بين أشقائي الذي حقق ذلك و دونما فائدة فلم يغير من طبعه تجاهي بشيء ،،،،لماذا ؟ !!!!لا أعرف ،،،،،،، لا أعرف ، لا أعرف .....) .

ظل غارقاً في تفكيره العقيم دون جدوى الى أن بلغ السيل الزبى عندما أدرك السبب الحقيقي وراء معاملته السيئة له عبر فراش مكتب والده العم ايوب و الذي يحبه منذ نعومة أظافره عندما كان يعمل بواباً لمنزلهم ، فقد إكتشف المزيد من

الحقائق المرعبة الغائبة عنه مدة طويلة أن أخاه الأكبر هو وراء إضطهاد أبيه له بسبب تحريضه الدائم ضده و تحميله مسئولية تشوية سمعة الشركة و العائلة عندما أقام والده حفلة كبيرة في إحدى فنادق الخمس نجوم بمناسبة نجاحه في الثاني الإبتدائي و التي كانت ليلة عامرة بما لذ و طاب من أصناف الطعام و الشراب الحلال منه و الحرام على حد سواء حضرها العديد من الرجال و النساء من صفوة المجتمع و عامتهم مغدقا عليه ملايين الدنانير عليه

فكثر كلام الناس و الجيران و لغطهم سواء خلف نوافذ بيوتهم المرصوصة بالحجر أو خارجها حول ثروته التي هبطت فجأة عليه بعد تقاعده من الوظيفة دون مصدرها و على إثرها أسس شركته الخاصة للمقاولات و كل هذا سبب له حرجا شديدا على سمعته المالية.

(نادر ؟ !!نادر وراء كل هذا ؟!!!)

(أجل يا بني)

(أنت تكذب يا عم ايوب ، من المستحيل أن يفعل هذا بي ، أنا أخوه و قرة عينيه)

(أعرف يا بني إنه من الصعب تصديق ما قلته للتو ، لكنه الحقيقة ، صدقني)

(الحقيقة ؟ !!لماذا ؟ !!!)

(حتى يخفي أخطائه و تجاوزاته المالية و التي تسببت للشركة بخسائر فادحة من بينها الأزمة التي حدثت قبل ثلاث سنوات لأخذه مصروفا شهريا مقداره خمسة آلاف

دينار و تعاقده لحسابها في مشاريع فاشلة أدت الى عجز في ميزانيتها)

(هكذا إذن ،،،،،، هكذا إذن ،،،،، هكذا إذن)

(فراس ؟! الى أين يا بني ؟ !!)

لم يصغ لندائه حيث إندفع نحو المنزل حصاناً هائجا خلال مضمار السباق و قد تطاير الشرر من عينيه و أسنانه تصطك من القهر و الغدر ، و إن كان قد لجم نفسه في أخر لحظة عند وصوله الى الباب و

ضغط على زر الجرس بشدة لتفتحه امه مبتهجة به.

(السلام عليكم يا اماه)

)و عليك السلام يا بني ، أين كنت يا حبيبي ؟ لقد قلقت عليك كثيرا(

(أبداً ، بعدما أنهيت محاضراتي عرجت على الشركة لأرى أبي فلم أجده)

(لكن أباك هنا و قد عاد لتوه من العمل)

(حقا ؟ و أين هو الآن ؟ أنا لا أراه و شقيقاي في غرفة المعيشة ؟!)

(أبوك و شقيقاك ؟!!)

تحرجت من الإجابة فلم تقل شيئا مما أثار إستغراب ، فالح فراس في سؤالها مرة أخرى .

(ما الأمر يا أمي ؟ !!لقد سالتك أين هم فلم تجيبيني ؟ !!أمي ..... أين هم ؟ !!!)

(جججميعهم على مائدة الطعام .....)

)على مائدة الطعام ؟ !!هل هم(.....

(يتناولون الغداء الآن !)

(دون أن ينتظروا مجيئي ؟ !!!لماذا ؟ !!!)

(لا أعرف ، لكن أباك قال لن ينتظرك و امر بألا نبق لك شيئا من طعام الغداء)

(أبي قال هذا ؟!!!)

سرعان ما جحظت عينيه و أحمر وجهه من شدة الغضب و إنطلق نحوهم يضمر الشر لهم سريعا ، حاولت والدته اللحاق به لكن دون جدوى ، فهجم على المائدة بكلتا يديه و بكل ما اوتي من قوة راميا كافة الأطباق واحدة تلو الأخرى على والده و

نادر اللذان حاولا عبثا تفاديهم تماما مخاطبا اياهما بألفاظٍ ناريةٍ تحرق الأخضر و اليابس دون رحمة او شفقة و إن كانت لم تحرك مشاعرهما البتة .

(أنت بالله أب ؟ ام جلاد في سجن يعامل نزلائه معاملة الحيوانات المنبوذة في جحر مظلم حتى تقتل ؟ هل أنا حشرة قذرة حتى تعاملني هكذا و تسحقني بقدميك ؟ و أنت يا نادر ، أتسمي نفسك أخا او شقيقا لي ؟ عار عليك هذه الصفة التي تتشدق

بها ؟ لم أر أخا مثلك يكن في قلبه كل هذا الحقد الأسود الدفين لأخيه في حياتي ، ذوقا هذه الضربات جزاء وفاقا لما إرتكبتموه بحقي من مظالم و مضايقات ، خذا)

ولت منال هاربة منه محتمية بأمها التي وقفت حائلا بينه و والده و نادر بعدما أدما وجهيهما و طوقته لتخفف من هيجانه الثائر قارئة سورتي يس و الملك حتى خف

وطيسه و جلس على إحدى كراسي المائدة و تنفس الجميع الصعداء .

(4)

أغمض فراس عينيه المرهقتين من شدة النعاس و الحزن و القلق ذارفاً دموع صغيرة تتسلل الى عنقه و هو مستند على شجرة ظليلة قرب مغارة الجبل الواقع أسفل الغابة متذكرا كل هذه المشاهد الأليمة التي لم تزل تحز في نفسه حتى هذه اللحظة ، ثم

إستأنف قطار ذكرياته عندما كان في قسم الشرطة بعدما بلغهم والده بما حصل ، و كيف أنه ضرب حضرة الرقيب مازن عبود رئيس القسم بعدما صرخ عليه و اهانه بألفاظ نابية فقام بصفعة على جبينه حتى أصابه بعاهة مستديمة جعلته دون حراك ثم ضرب الضباط الذين حاولوا ايقافه لحظة هروبه و اوقعهم مطلقا لساقيه العنان عند خروجه من هناك حيث لم يستطيعوا اللحاق به ، ظل يجري و يجري بسرعة صاروخ هائل دون أن يعرف الى أين ؟

فعقله يريد نسيان كل شئ يعج فيه دون توقف و إزعاج ، أباه ، امه ، شقيقاه نادر و منال ، الناس ، البلاد ..... و غيرها من الأشياء التي كانت تضيق على صدره و تكتم على أنفاسه و وجد ليرميها من جسده الى غير رجعة محتضنا السماء و هوائها الطلق بعينيه المنفتحتين بإتساعهما فرحا و سرورا ، و أثناء ذلك تذكر صديقه و زميل الدراسة مروان الذي لم ينس معروفه أبداً عندما وقف الى جانبه وقت الشدة و الأزمات حين كاد أن يترك الدراسة نهائيا ،

إضافة الى مساعدته في تسجيل المحاضرات جميعها لحظة غيابه تلك الفترة رغم أنه يسبقه جامعيا بسنتين حيث أن فراس لم يزل في المستوى الأول وقتها ، فلم يجد له ملجا من قبضة الشرطة سواه ، عندها وصل الى إحدى العمارات المهترئة لواحدة من الأحياء الهامشية الفقيرة الواقعة أقصى غرب المدينة و تضم العديد من اللاجئين الفلسطينيين و البدو القادمين من شرق البلاد يجمعهم الفقر و البؤس ، و كان رقمها (١٤) حيث يسكن

مروان و الذي ما إن فتح له الباب حتى رحب به ترحيبا حاراً و أدخله الى الشقة بسرعة عندما علم سبب قدومه اليه بعدما روى تفاصيل ما حدث اليوم حتى طمأنه بان المكان امن و لن تصل الشرطة الى هنا مطلقا فهي قلما تأتي لهذه الأحياء العشوائية المجهولة بالنسبة له و كان محقا في ذلك ، فبعد مرور ٦٩ دقيقة من وصوله الى الحي لم يأتوا او يفكروا بالمجيء ناحيته ليتنفس على إثرها الصعداء و بدا يرتشف عصير الليمون الذي أعده صديقه

و حدثه عن موضوع يتعلق بسعيه تكوين كتيبة عسكرية من المتطوعين الشباب سواء فلسطينيون كانوا و هم يشكلون غالبيته ام أردنيون تسعى الى محاربة الجيش الإسرائيلي و شن العمليات الفدائية ضده داخل الأراضي الفلسطينية في الخط الأخضر او خارجها ردا على ما يرتكبه بحق الشعب الفلسطيني من ٦٠ عاما بدلا من حياة الضياع و التسكع و الإستسلام للتيارات السياسية الحكومية كانت ام المعارضة من اليسار او اليمين او

الإسلاميين او الشيوعيين او العلمانيين كل يهدف لخدمة أغراضه فقط او الهجرة للهرب من اوضاعهم البائسة ، و هذه الكتيبة مكونة من شباب مخترعين و عباقرة في مجالاتهم من بينهم خبيرا لصناعة البطاقات الشخصية الإلكترونية تجمعوا أسفل وادي الزرقاء في أحد مخيمات اللاجئين التي كانت خلال حرب ايلول الأسود قاعدة سرية لمقاتلي فتح لم يعرف مكانها أحد قط ، و إقترح على فراس الإنضمام اليها و يصبح نائبه فرد سريعا

بالموافقة مما أصاب مروان بالدهشة ، فقد رأى فيه الخيار الوحيد لينقذه مما هو فيه من كرب و حيرة نفسية تستوليان على عقله اما بالنصر او الشهادة فهو لم يعد لديه اي شئ يخسره في هذه الحياة ، ثم تذكر كيف إستطاعا الوصول الى المخيم دون أن تلاحظهم الشرطة حيث كان حيهم مجاور للوادي تماما ، التقوا بعناصر الكتيبة و بدأوا يعدون العدة لعبور نهر الأردن عبر ممر الصبيحي الحدودي و إستطاعوا خداع الجنود الأردنيين و

الإسرائيليين و دخلوا الخط الأخضر بسهولة حيث تنكروا بهيئة سياح اوروبيين مستفيدين من عيونهم الزرقاء و شعورهم الصهباء و الشقراء الى جانب إتقانهم لبعض اللغات الأجنبية ما بين إنجليزية و فرنسية و إسبانية و المانية و هولندية بطلاقة غير معهودة ، كما لم يستطع الجنود الإسرائيليون بكاشفاتهم الإلكترونية كشف بطاقاتهم المزورة ليختبئوا في أحراش الغور المكتظة بالخضرة المعتمة لمدة أربع سنوات و من ثم يقومون بأول

عملية فدائية لهم ضد دورية عسكرية بالقرب من عين كارم عام ١٩٩٩م ، ثم كيف إستشهد قائدهم مروان خلال تفجيره لأحد الأنفاق المحفورة تحت أساسات المسجد الأقصى من قبل الإسرائيليين في العالم التالي و التي قتل فيها ٥٠٠٠ جندي و مهندس و رجل دين منهم كانوا يعملون هناك و أن أعضاء الكتيبة قرروا إختيار واحدا منهم خلفا له ، فوقع رايهم على نائبه فراس قائدا لهم ليواصل مسيرة سلفه في الكفاح المسلح ضد هذا العدو

الغاصب الذي قد لا ينتهي بين ليلة و ضحاها و ربما يستمر الى يوم القيامة إذا أصر على عتوه و همجيته ، من يدري.

(5)

تبخرت ذكرياته عند إنبلاج فجر يوم جديد بضوئه الساطع على عينيه لتبدأ معه عملية

جديدة قد تكون الأخيرة بالنسبة له و رفاقه ، هكذا كان يشعر لحظة إستيقاظه ، ثم نزل نحو المخبأ حيث ينامون فايقظهم عبر التصفيق لهم بشدة ثلاث مرات متفرقة و هي الإشارات السرية المتفق عليها فيما بينهم ليعرفوا بعضهم بعضا و لا يكتشف مكانهم أحد ، ما إن سمعوها حتى نهضوا من نومهم نهضة رجل واحد لا تظهر في ملامح وجوهم آثار النعاس و التثاؤب مما يدل على أنهم تدربوا و نظموا تنظيما صارماً و دقيقاً قبل تهيئتهم لدخول

فلسطين للقتال ، وقتها ، كانوا مصغيين لكلامه بجدية تامة:

(إسمعوني جيدا ، اليوم سنقوم بعملية جديدة ضد الجيش الإسرائيلي ، وهذه المرة داخل حيفا ، هناك دورية عسكرية قادمة من عسقلان محملة بالأسرى الفلسطينيين و من بينهم فدائيون مثلنا ، لذا يجب أن نحررهم جميعا ، أعرف ما تريدون قوله بأنها عملية خطرة و فيها مجازفة كبيرة قد تؤدي بحياتنا ، لكن

إعلموا بان كتيبتنا قامت على مواجهة الخطر من أجل هدف واحد هو تحرير فلسطين من دنس هؤلاء الصهاينة الغاصبين ، لذا خضنا في سبيلها العديد من العمليات الناجحة و الخطرة و التي لم يكن يفصلنا فيها عن الموت سوى شعرة واحدة ، فلم يعد هناك وقت للفرار او التراجع لان الخطر يداهمنا من كل ناحية ، مفهوم ؟)

ردوا عليه بالإيجاب مما حفز فيه روح الثقة لديه لحظة إنطلاقه معهم و جعلته يتقدم نحو غايته بخطى ثابتة دون أن يدري بأنه يقترب من حافة الموت و الشهادة .

في مكان آخر ، حيث مسقط رأسه بالزرقاء ، كانت عائلته مجتمعة في غرفة المعيشة وقت العصرية متسمرة امام التلفاز بإنتظار أخبار منتصف اليوم من قناة الجزيرة ليعرفوا أخر عمليات النمر الأصفر و إنتصاراته ، فقد غدا بطلا قوميا في نظرهم

و غيرهم من المشاهدين في أرجاء العالمين العربي و الإسلامي ، فدار بينهم هذا الحوار المحتد بطبيعته :

(لقد حقق لنا النمر الأصفر ما كانت ترجوه الشعوب العربية قاطبة و هو تحرير فلسطين و عاصمتها القدس الشريف من دنس اليهود عليهم لعنة الله)

(معك حق يا أبي ، إنهم يستحقون ذلك)

(باسل ، عندما رأيت صور النمر الأصفر في التلفاز و دققت فيها لاحظت أنه يشبه

تماما ولدي و حبيبي فراس ، هل يكون هو النمر الأصفر ذاته ؟)

(كفي عن الهراء يا سلمى ، لا يمكن أن يكون النمر الأصفر هو نفسه ذلك السافل العاق لوالديه الحقير فراس)

(اياك أن تصف ولدي فراس بهذه الألفاظ القبيحة ، فهو أشرف فتى في الدنيا كلها و ...)

(أصمتي يا حمقاء ، و فراس سافل يعني سافل ، و اياك أن تذكري إسمه امامي ، أتفهمين ؟)

(حححاضر !)

تقولها و هي تعتصر الما و حزنا على فراس رغم مواساة إبنتها لها.

(أبي ، لما كل هذا الغضب من أجله ؟ ! أنت تبالغ في قدراته حيال مواجهته للإسرائيليين و كأنه سوبرمان سيقضي عليهم بضربة يد واحدة ؟ !! إنه لا شيء ،

و حتى عملياته التي تتفاخرون بها لم تستطع تحرير شبر واحد من أرض فلسطين تماما ، لا أحد يستطيع دحر الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر او هزيمته .....)

(أصمت ايها الحقير ، و اياك أن تمدح إسرائيل و جيشها و تشتم النمر الأصفر امامي و إلا طردتك من البيت و تبرأت منك ، مفهوم ؟ أجب !)

(االسف يا أبي ، أنا ...)

(ششش ، إسمعوا هذا الخبر !)

و بدا المذيع المخضرم جمال ريان يستهل بإذاعة الخبر الخاص بالنمر الأصفر و كتيبته بنحنحته و تكشيرة وجهه المعتادة و أنظار العائلة مصوبة نحوه مترقبة لما سيقول :

(إستشهد قائد كتيبة القدس المدعو النمر الأصفر أثناء قيامه بتحرير مجموعة من الأسرى و المعتقلين الفلسطينيين قادمين من عسقلان و التي تمت بنجاح و حرر حوالي ٥,٥٠٠ أسير بعد مقتل ٦٠

جندي إسرائيلي و ١٠٠ عنصر من الكتيبة خلال الإشتباك المسلح بينهم و إنسحب البقية مع الأسرى ...)

بدأت معالم الأسى ترتسم على وجوههم حزنا على البطل الشهيد و لم يعكرها سوى تعليق نادر على ما حدث بنبرة شماتة و إزدراء لا توصف:

(أرأيت يا أبي ؟ لا أحد يستطيع هزيمة الجيش الإسرائيلي و لا نمرك الأصفر هذا ...)

ما إن سمع السيد باسل ما قاله حتى أحمر وجهه غضبا و كاد أن يهوي بيده عليه دون جدوى حيث إختبأ نادر وراء امه التي وقفت عبثا حائلا امام أبيه ، لكن الجميع توقفوا لبرهة و التزموا الصمت عندما صرخت منال فيهم :

(توقفوا ، المذيع سيكشف لنا الهوية الحقيقية للنمر الأصفر ، إسمعوا)

(من جهة أخرى ، عثر فريق التحقيقات التابع للشرطة العسكرية الإسرائيلية في

مسرح الحادث ضمن متعلقات جثة النمر الأصفر بطاقته الشخصية التي تكشف لنا عن هويته الحقيقية لأول مرة لهذا القائد الميداني الذي دوخ الجيش الإسرائيلي كثيرا في بحث مضن عنه لمدة ٥ سنوات و هي صادرة عن وزارة الداخلية الأردنية و إسمه الحقيقي فراس باسل نبهان ، جنسيته أردني ، و هو طالب في كلية الهندسة ، من مواليد ١٩٧٨/٤/٢٣م و .....)

نزل الخبر على الجميع كالصاعقة التي شلت حركتهم تماما ، منفرجة عيونهم من شدة الدهشة غير مصدقين ما سمعوه الان ما عدا امه التي كانت على يقين بان النمر الأصفر هو ولدها و قرة عينها فراس و لاسيما و أن صورته في البطاقة الشخصية المذكورة و المعروضة على شاشات التلفاز و المتصدرة لعناوين الأخبار قد أكدت أحاسيسها و ولوعتاها المسكونة في عقلها المثقل بالهموم ، اما السيد باسل لم يصدق أن ولده فراس الذي حط من قدره

و كرامته و وبخه و ضربه مراراً و تكراراً و عامله معاملة قاسية هو النمر الأصفر ، كذلك نادر لم يتصور أن الذي قض مضجع الجيش الإسرائيلي و أدخله في دوامة رعب أزلي دام خمسة أعوام هو أخوه الأصغر ، وفجأة بدا السيد باسل يشعر بتشنج في يديه و إلتواء أصابعهما ثم إعوجاج فمه كليا الى اليسار و ما إن حاول تحريك جسده حتى سقط على الأرض مشلولا و مغشيا عليه ، و ما إن رات زوجته ذلك حتى إندلعت من فاهها صرخة

مدوية مولولة هزت أرجاء البيت الساكن الكئيب بصرامته و بهرجته المزيفة الخانقة التي لم يجن أفراده منه سوى الضيق و الالم .

(6)

ما إن لفظ أنفاسه الأخيرة على إثر الرصاصات الثلاثة اللائي إخترقن قفصه الصدري حتى بدأت روحه تصعد متحررة

من قيد جسده المثخن بجراح كفاحه الطويل خلال مسيرة حياته بحلوها و مرها و منطلقة الى أعلى تعانق عنان السماء بكل ما اوتيت بها من قوة لتراقب من هناك ما يجري على الأرض ، جنود إسرائيليون يحيطون بمكان العملية الفدائية و يقيمون بتسييجه لكي يجمعوا الأدلة و مخلفات الهجوم تحت أصوات سيارات الإسعاف و أضواء كشافاتها الساطعة في وضح النهار يتجمع العديد من الناس و العسكريين المذهولين مما حصل و هم يرون الجثث

المتناثرة قرب حطام حافلة الأسرى المليئة بالثقوب بعدما امطرها و جماعته بوابل من الرصاص و النوافذ المهشمة .

و تراقب ايضا الصحفيين ينهالوا بكاميراتهم على جثة فراس ليلتقطوا له صورا لمن أقض مضجع دولتهم المزروعة في قلب وطنه الأصلي فلسطين من قبل البريطانيين و العرب و المسلمين عام ١٩٤٨م و هو يحمل على أكتاف غرباء قدموا زحفا من قلب اوروبا نحو هذه الأرض دون أن يمتوا

باي صلة لها بالرغم من أنه هو ذاته كان غريبا عند اهله و بلده و قوميته و دينه حيث لم يقدم على سلوك هذا الطريق الخطر سعيا وراء كسب شهرة واسعة بين الشعوب العربية او الفوز بالجنة و الخلود فيها فلم يدر بخلده كل هذا بعدما قذف بنفسه نحو الموت بصدر رحب عله يحقق ذاته تحت عباءة صاعقة النمر البنغالي الشديدة الصفرة ، سرعان ما إن إنطلقت روحه الى بارئها بعد رحلة عذاب مريرة مست فراس فقيرا او غنيا إنتهت فصولها

بثلاث رصاصات نحاسية اللون من بندقية أحد الغرباء الذين امتلكوا أرضا ليست أرضهم.

(النهـــــــايـــــــة)